

مقاربة سيميائية للموت في شعر تميم البرغوثي

الدكتور: علي بخوش

الأستاذ: إسماعيل عشور

قسم الآداب واللغة العربية

كلية الآداب واللغات

جامعة بسكرة - الجزائر

1- أصل الموت:

الموت هي اللفظة التي شكلت جوهر واهتمام الإنسان منذ أن بدأ يعي وجوده فالموت حدث يززع الحقيقة الإنسانية من وجودها، فلذا نجد أن الموت منعكس على جميع السلوكات البشرية، فراح الإنسان بطبيعته محاولة التغلب على هذه الحقيقة الإلهية العظيمة وذلك من خلال تجسيدها في جميع النواحي الفكرية .

الموت والحياة وجهان لحقيقة واحدة تعكس قانون الطبيعة الأزلي، وهذه الحقيقة استحوذت على الفكر البشري وأثارت حلقة من التساؤلات الملحة التي يطرحها ذلك السير المجهول الذي رسمته هذه الثنائية ما الموت؟ ولماذا نموت؟.

شكلت هذه الأسئلة هاجسا لدى الإنسان منذ الأزل، فحاول الإجابة عنها وتفسير هذه الظاهرة ثم ربطها بظواهر طبيعية أخرى تلتقي معها في المصير المشترك ألا وهو الفناء.⁽¹⁾ فالموت قضاء على كل ما هو كائن كما أنه نهاية الحياة فقد تكون هذه النهاية بمعنى انتهاء الإمكانيات، وبلوغها حد النضج والكمال، فيكون بذلك الموت حالة من حالات الحياة، حالة ضرورية تكون الحياة فيها منذ البداية.⁽²⁾

إذن الموت حادث من نوع مختلف تماما، إنه بالنسبة لنا ولغيرنا حادث يكسر إيقاع الحياة الرتيب نسبيا، وليس هذا فقط بل إنه يوقف دورتها جاعلة منها الجماد عند تاريخ البشرية بحيث لا يستطيع التحرك قيد أنملة.⁽³⁾

2- الموت لغة :

جاء في لسان العرب. الموت هو السكون، وكل ما سكن فقد مات. يقال: مات الرجل وهمد: إذا نام وماتت النار موتا برد رمادها، ومات الحر والبرد ويقال: ماتت الريح أي ركبت وسكنت، ومات الماء بهذا المكان: إذ انتشفت الأرض.

والموت يقع أنواع في الحياة منه ما هو بإزاء القوة المادية النامية، ومنها زوال القوة العاقلة، ومنها الحزن والخوف المكدر للحياة، ومنها المنام إذ يستعار الموت للأحوال الشاقة كالفقر والذل والسؤال والهزم والمعصية.

يقال: « رجل موتان الفؤاد غير ذكي، ولا فهم والموتة بالضم جنس من الجنون والصرع الذي يعتري الإنسان، ويقال أيضا: مات الرجل إذا خضع، واستمات الرجل إذا طاب نفسا للموت». (4)

أما المستميت: « الذي يتخاشع ويتواضع لهذا حتى يلقى أجله» (5)

والمتماوت: « من صفة الناسك المرائي، والمستميت أيضا الذي يرى من نفسه السكون ويقال: المستميت الشجاع الطالب للموت، واستمات الرجل أي ذهب في طلب الشيء كل المذهب، واستمات الثوب: إذا بلى». (6)

3- الموت في الديانات السماوية:

3-1- اليهودية: طرحت التوراة مفهوم الموت كمصدر اختاره الإنسان بنفسه قبل بداية الخليقة، فلسبب غير معلن بالضبط اختار سيدنا آدم عليه السلام شجرة المعرفة، وترك شجرة الخلود وهذا الاختيار كان مصدر سعي البشرية الحثيث في الدنيا بحثا عن الحقيقة وربما كان الموت عقوبة ترتبت على هذا الاختيار.

لم تختلف نظرة اليهود للموت عن تلك الأساطير الدينية القديمة التي نظرت إلى الموت شيء اختياري قد اختاره الإنسان لنفسه كما أثر التصور اليهودي في نظرتهم للموت على الفكر الغربي بأكمله الذي غير التفكير اليهودي اتجاه الموت، وجعلته يحكم أحكام قاسية. (7)

ذهب الحاخامات إلى أن الرب قد امتدح خلقه فمن ذا الذي يستطيع أن يذمه؟ والشر -الموت- إنما يجعل العالم من خطأ الإنسان، فقد خلق كي يحيا ولا يموت فالرب منح الإنسان شرارة الحياة كما قدر له العيش على الأرض التي أعد لها بل أنه حذره حول ما لا

ينبغي له أن يأتيه كي لا يقع ضحية الموت، وأما شجرة المعرفة أي الخير فلا تأكل منها، فبهذا الفهم والتأويل الحاخامات لفكرة الموت انطبع عند اليهود فكرة العقوبة الناجمة عن خطأ الإنسان، وإنه يستحق من أجلها الموت. (8)

3-2- النصرانية: إن الفكر المسيحي أخذ مفاهيمه عن الموت وآمن بها من خلال مقولات المسيح عليه السلام عن الموت أثناء حياته كما كانت لرسائل " يولوس، انجيل يوحنا" والأنجيل المتوافقة دور كبير في تقنين المعتقد المسيحي، وعليه الموت عند المسيحيين قد أخذ أبعاداً مختلفة خاصة عند طرح جدلية الجسد والروح. (9)

الموت عند المسيحيين له معنى ثلاثي هناك الموت الطبيعي الذي له نهاية الحياة العضوية ثم الموت المعبر عن وضع الإنسانية خارج الإيمان المسيحي أما الموت الثالث الصوفي عبارة عن مشاركة في الحياة الإلهية التي تجري بالفعل من هذا الوجود الأرضي فالموت في الدين المسيحي مستلهم من الأحداث التي تعرض لها المسيح عليه السلام. (10)

3-3- الإسلام: أدى ظهور الإسلام إلى تغيير الكثير من الذهنيات والمعتقدات التي كانت سائدة في شبه الجزيرة العربية، والتي كانت تعد من المسلمات التي بنى عليها الإنسان العربي في تلك المرحلة حياته، كما الإسلام بالديانات التي سبقته والأنبياء الذين سبقوا الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم.

انقل الإسلام بالإنسان من عالم الماديات المتمثل في الأصنام التي كان يصنعها بيده فيبعها تارة، وتارة يأكلها إن جاع إلى العالم الروحي حيث الإيمان بالله إيماناً مطلقاً فالعقيدة المحمدية التي أراد الرسول عليه الصلاة والسلام أن يزرعها في المسلمين قبل أن يدخلهم في الدين، فأراد الإسلام الإجابة عن قضية الموت والتي أعطاها أكبر اهتمام إذ نجد في كل سورة تذكير بالموت إما تصريحاً أو تلميحاً. (11)

جاء في الكتاب العزيز عدة سور وآيات قرآنية تتضمن الموت فيقول المولى عزوجل: « قُلْ إِنْ أَلَمَّكَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلْفِيكُمْ ». (12)

في هذه الآية الكريمة إشارة للموت الذي لا مفر منه وإنما هو حقيقة إلهية كما وردت الموت في العديد من سور القرآن الكريم في حين أن الرسول عليه الصلاة والسلام تحدث عن الموت في أحاديثه الشريفة، فالموت في الإسلام تحفة المؤمن.

أخرج "الحاكم" في "مستدرکه" و"الطبراني" و"ابن أبي الدنيا عن عبد الله بن عمرو رضي" الله عنه مرفوعا: « الموت تحفة المؤمن». (13)

قال رسول الله صلى عليه وسلم: « اثنان يكرهما ابن آدم، يكره الموت والموت خير من الفتنة، ويكره قلة المال وقلة المال أقل للحساب». (14)

سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم أي المؤمنين أكيس أي أعقل؟ قال: « أكثرهم للموت تذكر وأحسنهم لما بعده استحسانا أنك الأكياس أي العقلاء». رواه ابن ماجة من حديث عمر. (15)

هذه بعض من أحاديث الحبيب المصطفى صلى عليه وسلم عن الموت الذي يمثل للمؤمن ربحانة وتحفة كما أنه طريقة للوصول على الجنة، فمحمد صلى الله عليه وسلم حذر من الموت وحث المسلمين والصحابه بضرورة الاستعداد له وذلك بالعمل الصالح وطاعة الله سبحانه وتعالى.

4- مدار المقاربة السيميائية

لجأ الإنسان منذ خلقه لدرء الموت بكل ما أجاده القلم، ولم يجد سوى الشعر لتعبير عن أحاسيسه وأفكاره اتجاه الموت، فالكلمة الشعرية بما تحمله من أنغام تشكل بالنسبة للشاعر متنفسا روحيا إذ يطلق العنان لمشاعره وهمومه، وتوجهاته إزاء الموت، لذا يلاحظ أن جل الشعراء المعاصرين قد صنعوا فكرة الخلود في مخيالهم الشعري لتجاوز الزمن الحقيقي إلى زمن سرمدى تحدوا فيه الموت. 16

يعد الشاعر "تميم البرغوثي" من الشعراء المعاصرين الذين وظفوا الموت في الشعر الذي يشكل موضوع اهتماماته وتحيره؛ لأن الموت يحاصره من كل جانب إذ يتعايش معه كل يوم في وطنه المحتل من قبل المستعمر الصهيوني، لذا نجد الشاعر اصطلاح الموت باللفظ عينه -موت- في ديوانه "في القدس" كما حمل الموت في قصائده مرادفات ومعان تدل عليه والمتمثلة في الاندثار والزوال والنهاية والهوان والحطام والشهادة والرزايا القبر أو بالأحرى كل ما يرتبط به ارتباطا حسيا معنويا، فالشاعر "تميم البرغوثي" أضفى على الموت دلالات وإيحاءات محجبة سنتناولها في دراستنا بمنظور سيميائي.

4-1- سيمياء الغلاف:

جاء صورة الغلاف على خلفية سوداء غز غلب عليه السواد الذي يحمل عدة مدلولات سيميائية تحيل إلى الكيان الصهيوني الذي احتل بلاد المقدس، إذ عمد لطمس كل مقومات الدين الإسلامي وذلك من خلال انتهاك حقوق وحرمان الشعب الفلسطيني ليُدخله في حيز الموت المعبر عنه في الغلاف باللون الأسود، إلا أن اللون الأسود لون من ألوان العلم الفلسطيني، كما يحيل أيضا إلى الشيعة ذوات العمائم السوداء، حيث توسط الغلاف صورة باب مفتوح مباشرة على المسجد الأقصى الذي يدل على الأمل المُبعث في قلوب المسلمين الرغبة في الوقوف على أرض فلسطين حرة مستقلة.

كتب اسم الشاعر "تميم البرغوثي" باللون الأبيض في أعلى الغلاف ليكون كالناظر من بعيد إلى القدس، لكونه يسكن بعيدا عنها، وهذا البياض له دلالة سيميائية الماثلة في الأمل المتجذر في نفسيته للعودة إلى القدس تحت رايات السلام والأمان والحرية.

4-2- سيميائية العنوان:

يدخل العنوان والديوان في علاقة تكاملية وترايطية الأول يعلن والثاني يفسر ويفصل ملفوظا مبرمجا إلى درجة إعادة إنتاج أحيانا النهاية في العنوان لتكون مفتاح النص وعلى هذا الأساس يعتبر عنوان ديوان "في القدس" النواة الدلالية الأصلية التي تتبثق منها الدلالات والمعاني الثانوية.

يلاحظ القارئ لديوان "في القدس" للشاعر "تميم البرغوثي" أن العنوان مرتبط بالمتن الشعري ارتباط الدال بالمدلول بحيث يعطي للقارئ المفاتيح الأساسية لفك شفراته ورموزه الغائبة، فيقول "رشيد بن مالك": «العنوان بداية الكتابة التي تظهر على واجهة الكتاب كإعلان إشهاري محفز للقراءة».⁽¹⁷⁾

عنوان الديوان لشاعر "تميم البرغوثي" يحمل اسم القدس التي ذكرت في الديوان في قصيدته "في القدس" كما ذكرها في مواضع عدة «في القدس تنتظم القبور»، «في القدس دب الجند منتعلين فوق الغيم»، «في القدس السماء تفرقت تحمينا ونحميها» هكذا يتخذ الشاعر من القدس البيئة الملائمة للتعبير عن أفكاره ومعتقداته حول الموت.

القدس في معناه المعجمي الأرض المرتفعة الصالحة للزراعة وهي بلد قرب حمص من فتوح "شريحيل بن حسنة" كما أنها بلاد المقدس أولى القبلتين.⁽¹⁸⁾

عنوان الديوان عبارة عن شبه جملة جار ومجرور في محل رفع خبر لمبتدأ محذوف تقديره موجود.

عنوان الديوان "في القدس" يوحي بعدة دلالات سيميائية من شأنها إعطاء نظرة شاملة عن مدينة القدس، فالمتلقي عندما يقرأ العنوان يتبادر إلى ذهنه العديد من التساؤلات عن القدس فماذا يقصد " في القدس"؟، وماذا يحدث في القدس؟، ولماذا اختار الشاعر "تميم البرغوثي" لديوانه القدس بالتحديد، ولم يعنونه باسم مدينة أخرى؟، وهل للقدس دلالات أخرى ولماذا كتب العنوان باللون الأحمر؟.

هذه الجملة من التساؤلات يجيب عليها الديوان في حد ذاته فإذا أمعنا النظر في دلالة العنوان وحاولنا تأويله سيميائياً نجد أن لفظة " القدس" اسم لمدينة في فلسطين تدور فيها عدة أحداث سياسية، اجتماعية، دينية والمقصود منها الحالة التي تعيشها بلاد المقدس الذي احتل من قبل اليهود الذين دنسوا حرمة وانتهكوا حقوقه وعاثوا فيه فساداً فالقدس تعيش الموت يومياً تحت وطأة الاحتلال الذي اضطهد الشعب الفلسطيني وقتله إلا أن الفلسطينيين لن ولم يرضوا بالاحتلال الصهيوني لوطنهم فراحوا يقاومونه ويجاهدونه بكل ما استطاعوا.

تمثل الألوان في تناسقها وانسجامها مغناطيساً لشدة انتباه القارئ إذ توحى بعدة دلالات من شأنها دفع المتلقي لمواصلة قراءة الديوان.

كتب العنوان باللون الأحمر الذي يثير النظام الفيزيقي نحو الهجوم والغزو، وهو في التراث مرتبط بالشجاعة والثأر، كما انه يوحي بالشهادة والموت وكثرة التقتيل.⁽¹⁹⁾

تتجاوز لغة الألوان لغة التواصل نظراً لما تحمله من دلالات وإيحاءات كثيرة التي من شأنها جلب تفكير القارئ حيث تتبادر في ذهنه عدة تساؤلات، فاللون الأسود الذي كتب به عنوان الديوان توحى لنا بدلالة الفناء والموت لشعب الفلسطيني من قبل الاحتلال إذ يعكس حال بلاد المقدس المعيش كما نلمح فيه إشارة للمسلمين والعرب الذين رضوا بالرضوخ والهوان.

4-3-علامات الموت:

إن المتأمل في ديوان "في القدس" لشاعر الفلسطيني المعاصر " تميم البرغوثي" يجد زخماً من الألفاظ والمعان الدالة على الموت كما أن في توظيفه للموت دلالات متعددة تعكس لنا تميزه الفكري، والديني، والسياسي، والاجتماعي.

4-3-1- علامة الموت الشيعية:

سبق الذكر إلى أن الموت في معناه الديني نهاية الحياة الدنيوية، والمآل إلى الجنة والخلود، فالشاعر "تميم البرغوثي" استوحى من لفظة الموت التي تطارد مخيلته في جميع النواحي حتى الدينية منها فكرة الخلود، وارتباطها بفكرة التشيع للإمام علي بن أبي طالب -كرم الله وجهه- بحكم أتباع المذهب الشيعي قدسوا الإمام علي وآل البيت ويطهر الموت في ديوان "في القدس" كعلامة لغوية مكثفة بالمعاني والإيحاءات على تصورات ومعتقدات الشيعة عن الموت والبرزخ، والجنة، والخلود.

يقول الشاعر في قصيدته "خط على القبر المؤقت"²⁰

أصغ صياحَ امرأةٍ تُتأدي الموتي مَقْبَرَةً بِلا شَواهِدِ
سؤالُ الصُّحفي . إلى أين تَذهبونَ من هُنا
وَالجَوابُ إلى القُدسِ

عندما نتمعن في هذه الأبيات تبرز لنا بعد القراءة العميقة معاني ودلالات غائبة للموت الذي استدرجه الشاعر "تميم البرغوثي" من دلالاته وتصوراته الشيعية إلى الجانب الأدبي حيث أعطى للقارئ دلالة أو بالأحرى علامة سيميائية توقظ تفكيره بأن الموت هنا الغائبة منه أعلام الشيعة من آل بيت النبي صلى الله عليه وسلم، كما أن المرأة رمز يحيلنا إلى فلسطين أو بعبارة أخرى القدس العتيقة التي تعيش الموت فهي تستجد بآل البيت. يقول "تميم البرغوثي" في قصيدته "أمير المؤمنين إلى السيد حسن نصر الله"⁽²¹⁾

ألا أيها الناسِ عِندي جِجابٌ
سَيَجعلُ كُلَّ القُبورِ مُوقته ،فُخْدُوهُ
فَمَنْ ماتَ مِنْكم ،وإن ماتَ . على عُنقِهِ
لَنْ يَمُوتَ ، وإن ماتَ . إلا قَليلًا
وَمَنْ عاشَ يَحْمِلُ حُملاً تَقِيلًا

الشاعر في هذا المقام يثني على السيد حسن نصر الله الذي يمثل في رأيه الشخصي الرجل الذي بمقدوره تحرير فلسطين من الاحتلال فقد زكاه وأعطاه منزلة أمير المؤمنين، فالموت في هذا المقطع يحتوي على عدة مدلولات سيميائية من شأنها إبراز

فكر "تميم البرغوثي" الديني والعقائدي، وتتمثل في هذه الدلالات على معتقدات الشيعة عن الموت إذ يمثل الموت عندهم السبيل الوحيد لردع العدو كما أن في الموت حياة أخرى. يظهر الموت كدال يحتوي على مدلول سيميائي يتمثل في دلالاته على معتقدات الشيعة حول الموت الذي يمثل في اعتقادهم المآل الحقيقي للحياة.

يستدل الشاعر بأحد أهم أعلام " السيد حسن نصر الله " الذي وصفه بالموت وهو أيضا سفينة نوح عليه السلام التي أنجت جميع المخلوقات، ويظهر ذلك من خلال عنوان قصيدته التالية "سفينة نوح إلى السيد حسن نصر الله" فيقول (22)

حِينَ رَأَوْا جَنَّةَ خُلُقِ هَذَا الْحَرِيقِ
وَهُمْ دَرَبُوا الْمَوْتَ حَتَّى غَدَا تَابِعاً طَبِيعاً
وَهُمْ عَلِمُوا الْحَرْبَ دَرَسَ الْجَمَالَ

عندما نستحضر التصورات والمعتقدات الشيعية في قضية الموت وما وراءها، فإن الموت غايتهم الوحيدة في التمتع بالجنة، ومن ثمة مرافقة الأمام علي بن أبي طالب -كرم الله وجهه- في جنة الحيوان إذ وظف الشاعر "تميم البرغوثي" في هذا المقطع بجميع مدلولاته الشيعية كعلامة الدال فيها الموت، أما المدلول أو المقصود منه السيد حسن نصر الله هذا الموت الذي سيقوم بتحرير فلسطين من المستعمر الصهيوني حيث يقول "البرغوثي": « هم دربو الموت حتى غدا تابعا طبعاً » فالجنة لا بد لها من التضحية المتمثلة في الموت حيث أنه تدرب أي: لفن عقائد المذهب الشيعي لكي يبرزها في طابع جمالي.

4-3-2 علامة الموت المقاومة والحرية

تشغل سيميائية الموت وتجلياته عند الشاعر "تميم البرغوثي" في ديوانه "في القدس" حيزاً فكرياً وأدبياً إذ يعبر الموت عن العمق الجوهرية الذي يطلق توتراته الروحية، وعناء تجربته الشعرية إذ أن الصدمة التي تخلفها فكرة الموت عند الشاعر، والتي بدورها طغت على كلامه الشعري محاولاً خلق الحرية من أعماق الموت الذي يدفع بالشعب الفلسطيني لمقاومة الاحتلال.

تبدأ رحلة الشاعر "تميم البرغوثي" مع فكرة مقاومة العدو الصهيوني لبلاده في قصيدته "خط على القبر المؤقت" فيقول: (23)

وَكُلُّ لَأْبَسِ ثُوبِ الْمَنَايَا شَهِيدٌ فِي جَنَازَتِهِ شَهِيدٌ

غَرِيبُ النَّاسِ مَنْ يَحِيَّ شَرِيدُ
وَفِي الْمَوْتَى لَهُ قَبْرٌ شَرِيدُ
وَلَقَبِرِ الْمُؤَقَّتِ أَلْفَ مَعْنَى
يَضِيْقُ بِهَا السَّعَةُ النَّشِيدُ
وَمَا تَبْيِضُ بِالْقَمَرِ اللَّبَالِي
وَلَكِنْ هُنَّ حَيْنٌ تَغِيْبُ سُودُ

يحفل شعر "تميم البرغوثي" بطعم الموت ونكهته وحضوره بطاقة استعارية هائلة تحكي ظاهرتة في أوساط الشعب الفلسطيني، إذ ظل مرافقا له بكل دلالاته ومعانيه في لغته الشعرية حيث صورها بنماذج تعبيرية في شكل علامات لغوية من شأنها إبراز صوت الموت ودويها في نفسيته هذا الصوت الذي بث في نفوس الفلسطينيين روح المقاومة، وتحدي العدو الذي سلبه وطنه فتم تشريده وانتهاك حرماته مما أدى بالشعب الفلسطيني لتطلع للحرية وإنشادها ليتعالى إيقاع الموت الدال على الثورة ضد المستعمر ومقاومته التي من شأنها بعث روح الأمل للتحرر من قيود الاستعمار فيقول: « وفي الموتى له قبر شريد" فالموتى في هذا المقطع تحمل دلالة سيميائية على كثرة الموت التي توحى باستمرارية المقاومة حيث تزخر المقطوعة الشعرية بمعاني الموت مثل المنايا شهيد وجنازة والغربة والتشريد الموتى القبر، والسواد هذه الألفاظ توحى بالمقاومة.

تحكي قصيدة "الأمر" في طياتها قضية الشعب الفلسطيني المحتل الذي أراد الحرية شأنه شأن الشعوب التي تذوقت طعم الحرية إلا أن هذه الحرية لا تؤخذ بسهولة، وإنما لا بد لها من المقاومة والثورة على المستعمر إذ يقول "تميم البرغوثي" في هذا المقطع الشعري من قصيدته: (24)

الْخَيْلُ تَرْكُضُ فِي الشَّوَارِعِ إِلَى الْمَوْتِ الْحَصِينِ
تُحَاصِرُهُ
الْمَوْتُ مَاتَ لِأَنَّهَا لَمْ تَخْشَهُ
لَا تَحْسُبُوا الْأَجَالَ نَفُوسًا، فَإِنَّا زِدْنَا عَلَى الْمَوْتِ
الْكَثِيرِ عَشَائِرَهُ
هُوَ لَا يُبَادِرُنَا وَنَحْنُ نُبَادِرُهُ

تعكس هذه الأبيات صورة الموت الكامنة في باطن الشعب الفلسطيني الذي يعيش الاضطهاد من قبل الاحتلال الصهيوني الذي انتهك حقوقه وحرماته إذ تبرز حتمية الموت التي يتجلى في شكل علامة سيميائية تحمل العديد من الرموز والشيفرات التي بدورها تبرز

الطابع الدلائلي بعد قراءة تأويلية تفسيرية للمقاومة التي من شأنها رسم الخطى الثابتة نحو الحرية، التي لطالما حلم بها الشعب الفلسطيني حيث يقول: « ركضا إلى الموت الحصين تحاصره» حيث تبرز شبكة المدلولات المؤلفة في هذا المقطع كوسيلة تعبيرية على الحرية المحصنة التي تتسم ببعد المنال، فهذه الحرية لا بد لها من مقاومة وثورة من قبل الشعب الفلسطيني الذي يموت يوميا، وكأن الموت يزيد من عزيمته وإصراره للتحرر من قيود الاحتلال والعبودية هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى يلفت انتباهنا على الرغم من تهاطل الموت وسط الشعب الفلسطيني منذ ستين عاما إلا أنه لم يفن ويهلك على حد تعبير الشاعر فيقول: « لا تحسبوا الأجال أعداد النفوس، فإننا زدنا على الموت الكثير عشائره » كلما زاد الموت زادت إرادة الشعب في الحياة من أجل الحرية.

يؤكد الشاعر "تميم البرغوثي" فكرة صمود الشعب الفلسطيني في وجه الاحتلال الإسرائيلي لهذه البلاد المقدسة، ومقاومته حتى آخر نفس فيقول في قصيدته "حصافة":⁽²⁵⁾

يَا أَيُّهَا اللَّاهُونَ بِالدَّشَاشَةِ الْبَيْضَاءِ يَا بَيْضَ النِّعَامِ
لَا تَقْتُلُوهُ بِرَيْكُمُ
قَدْ تَعْلَمُونَ بِأَنْ أَعْنَدَ خَلْقَ خَالِقِهِمْ هُمُ الْمَوْتَى
وَأَنْ الْقَبْرَ لَا يُنْسَ وَيَحْفَظُ نَأْرَهُ

تنطوي هذه الأبيات على رؤية الشاعر "تميم البرغوثي" للمقاومة والحرية للشعب الفلسطيني من قيود الاحتلال الصهيوني، إذ توحى بعمق إحساسه الدفين بتعالى نعمة الموت في إيقاع حياته، وهيمنتها على خطابه الشعري إذ تتمظهر علامة الموت السيميائية في هذا المقطع الشعري من قصيدته "حصافة" على مقاومة العدو وإرهابه بتحديه والثورة عليه لآخر نفس فيقول: « قد تعلمون بأن أعند خلق خالقهم هم الموتى» فالدال هنا الموتى والذي بدوره يحيل إلى دلالة المقاومة وترهيب العدو، كما أن الشاعر يحث الفلسطينيين بضرورة التآزر لشهداء الوطن.

4-3-3- علامه الموت وحده الإسلام:

من خلال قراءة ديوان "في القدس" لشاعر الفلسطيني "تميم البرغوثي" تظهر جليا وقعة الموت على نفسيته إذ أرفهته، وجعلته يفكر في حل لهذه الأمة الإسلامية المتفرقة فيما بينها بسبب الفرق الدينية المتعددة من سنة وشيعة حيث دعا في قصائده لضرورة التوحد في

إطار الدين الإسلامي الذي يدعو في سنه ومعالمه لجهاد العدو، وتحرير البلاد العربية من الاحتلال.

يخاطب الشاعر "تميم البرغوثي" الأمة الإسلامية أو بالأحرى السنة والشيعة لتوحد تحت راية الإسلام لجهاد العدو الذي احتل بلاد المقدس.

فيقول في قصيدته "نثر موزون وشعر منثور في حديث الكساء ووحدة الأمة"⁽²⁶⁾

يَا كِسَاءَ النَّبِيِّ ارْتَفِعْ رَأْيَةً عَالِيَةً

لِبَيْنِ الْجَارِيَةِ

يَا كِسَاءَ النَّبِيِّ وَجَمْعَ قَبَائِلِهِمْ

خَفِيَ الْمَوْتُ عَنْهُمْ قَلِيلًا، وَغُرِبَتْهُمْ

فَلَقَدْ أَصْبَحُوا فِي الْبَلَاءِ سَوَاءً

يلاحظ في هذه المقطوعة الشعرية مخاطبة الشاعر "تميم البرغوثي" للأمة العربية والإسلامية بالإتحاد بينهما، وترك النزاعات خلفهما ولا بد لهما من جهاد العدو كما وصانا به الدين الإسلامي وحبينا المصطفى محمد صلى الله عليه وسلم، فحديث الكساء موجه للسنة والشيعة إذ يريد "تميم البرغوثي" أن يلما شملهما كما وصفهما بالموت، هذا الموت عبارة عن دال يوحي بالعديد من الدلالات السيميائية من أبرزها الموت بمعناه الديني نهاية الحياة الدنيوية ويبدل أيضا على البلاء الذي حل بالأمة الإسلامية من بعد تفرقها وخروجها عن الدين الإسلامي إلا أن جوهر الموت العكسي في هذا المقام هو الدعوة للوحدة الإسلامية والعربية في إطار الدين الذي بدوره ينص على الجهاد.

يعزز "تميم البرغوثي" فكرته الدينية الماثلة في التوحد ونبذ التفوق والعداوة في الدين

الإسلامي الذي يحثنا على التأخي بين المسلمين فيقول في إحدى قصائده "قفي ساعة"⁽²⁷⁾

فَقَدْ بَاتَ مُحْسُودًا عَلَى الْمَوْتِ نَائِلَهُ

عُمُومُ الْمَنَائِيَا مَا لَهَا تُجَامِلُهُ

كَذَلِكَ مَا يَنْجُو مَنِ الْمَوْتِ قَاتِلُهُ

وَهُمْ حَسَنَاتُ الْمَوْتِ حِينَ تَسَائِلُهُ

أَبِي لَا تَخَفْ وَالْمَوْتُ يَهْطُلُ وَأَبْلُهُ

نَرَى مَوْتَنَا تَعْلُو وَتَهْوِي مَعَاوِلُهُ

إِذَا عَجَزَ الْإِنْسَانُ حَتَّى عَنِ الْبُكَاءِ

عَزَائِي مَنِ الظُّلَامِ إِنْ مِتُّ قَبْلَهُمْ

إِذَا أَقْصَدَ الْمَوْتِ الْقَتِيلَ فَإِنَّهُ

فَنَحْنُ ذُنُوبُ الْمَوْتِ وَهِيَ كَثِيرَةٌ

نَرَى الطِّفْلَ مِنْ تَحْتِ الْجِدَارِ مُنَادِيًا

عَلَى نَشْرَةِ الْأَخْبَارِ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ

أرى المَوْتَ لَا يَرْضَى سُوانا قَرِيسَةً كَأنا لَعَمري أَهلُهُ وَقَبائِلُهُ

قصيدة "قفي ساعة" تزخر بمعنى الموت الذي وظفه الشاعر "تميم البرغوثي" في عدة أفكار مختلفة متجليا في جوهر عام الذي يستخلص بفكرة الوحدة في إطار الدين الإسلامي، فإن مصطلح الموت في القصيدة له عدة دلالات سيميائية من أبرزها المعالم الدينية على الموت والشهادة فيقول الشاعر: «فقد بات محسودا على الموت نائله» الموت في البيت يدل على الشهادة حيث أن المسلمين يتمنون الموت بالشهادة في سبيل الله عزوجل لدرجة أن الشهيد يحسد لما لقيه عند ربه من نعيم أما الموت في البيت الثاني كذلك يدعو فيه الشاعر المسلمين لتمني الموت الذي يدل سيميائيا على الموت في طابعه الديني، فالموت لا تختار بين الناس بل إن كل نفس إذا جاء أجلها لا تقدم ولا تؤخر ساعة ليوضح فكرته في البيت الذي يليه إذ أن الموت لا تترك أحدا، ولا يفر منه أحد فيقول: «كذلك مت ينجو من الموت قاتله» هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى يدل الموت أيضا على الثأر أو القصاص، فالموت توحى بال فلسطيني الذي يمثل في الموت الذي يهاجم اليهود بحيث لا ينجو منهم أحد أما البيت الثالث نجد الشاعر "تميم البرغوثي" يذم العرب لكي يحرضهم على الصهاينة الذين احتلوا وطنه فيقول:

« فنحن ذنوب الموت وهي كثيرة وهم حسنات الموت حين تسائله»

يتجلى خطاب الموت الموجه للعرب الذين لم تستطيعوا مقاومة العدو، فالموت مدلوله جمود الأمة العربية والإسلامية عن الجهاد، لذا نجد الشاعر في هذا المقام يبيث في روح المسلمين الجهاد.

ينقل الشاعر "تميم البرغوثي" الحال التي تعيشها فلسطين في ظل الاحتلال، فالشعب يقتل يوميا لذلك وجب الجهاد في سبيل الله والوطن لإعلاء كلمة الله في جميع أنحاء الوطن العربي والأمة الإسلامية على وجه الخصوص فلفظة الموت في البيت الموالي تدل في طياتها على استمرارية الموت فيقول: «أبي لا تخف والموت يهطل وابله» هذه الاستمرارية التي توحى بالجهاد والمقاومة إلا أن الموت دلالة ثانية حيث تتمثل في معانقة الموت وتمني الشهادة من قبل المسلمين .

يصف الشاعر "تميم البرغوثي" الموت في وطنه فيقول: «نرى موتنا تعلق وتهوي معاولة» الموت في هذا البيت كدال سيميائي يعطي للقارئ تصور ذهني أي مدل وله مفاده كثرة الموت الذي يشير إلى المقاومة والجهاد من أجل تحرير بلاد المقدس من المستعمر.

يصور "تميم البرغوثي" خطابات الموت في قصيدته "قفي ساعة" بصورة جمالية إذ مثل الموت بالنسر الذي ينقض على فريسته ليأكلها، فالموت في الصورة يهاجم جميع الناس لا يفر منه أحد مثل حال المسلمين في الحرب إذ يقاومون أعدائهم مقبلين على الموت الذي له أهل في وسط الشعب الفلسطيني، فالدارس السيميائي للموت في هذا البيت يتبادر في ذهنه مدلولات سيميائية لدال الموت الذي يمثل المقاومة، والجهاد الشهادة، والحرية هذا كله من أجل إعلاء كلمة الله في الأمة العربية والإسلامية.

يختم الشاعر "تميم البرغوثي" ديوانه "في القدس" بقصيدته "معين الدمع" التي جارى فيها الشاعر الجاهلي "عمرو بن كلثوم" إذ يصف حال فلسطين التي تعيش الموت بكل معانيه سواء في الجانب الاجتماعي، والسياسي، والديني مبديا مرادفات الموت في القصيدة التي تتوعد بين المصائب، والهوان، وقتلى، والمنايا، والرثاء، وشهيد، والرزايا نقائل.

هذه المرادفات تبدي لنا حال فلسطين المحتلة من قبل اليهود الذين عاثوا الفساد في بلاد المقدس إذ انتهكوا حرمة القدس والشعب الفلسطيني وسط صموت دولي تام إلا أن "تميم البرغوثي" يجاهد بقلمه، ويحث المسلمين العرب على مقاومة المستعمر لبلاده ويدعوهم لتوحيد شملهم تحت راية الإسلام.

يقول "تميم البرغوثي" في قصيدته "معين الدمع": (28)

لَكُمْ مِنْي أَلْفَ الشُّكْرِ أَلْفًا

وَشُكْرِي لَكُمْ أَنْ أَظَلَّ كَمَا كُنْتُ حَتَّى أُمُوتَ

بِقَلْبِ سَلِيمٍ

الشاعر هنا يتمنى الموت مسلما فيقول: «أموت بقلب سليم» فالموت تتجلى دلالاته السيميائية في الموت بالشهادة أو الموت على الدين الإسلامي إذ تبرز دلالية الموت في دعوة الشاعر لتأخي وتوحد المسلمين.

وبالتالي فإن ظاهرة الموت في الشعر المعاصر تعتبر الموت موضوعا مهيمنا على النص الشعري المعاصر إذ شكل هاجسا فكريا وأدبيا على نفسية الشاعر "تميم البرغوثي" إذ يسلم بحتمية الموت، وأنه لا مفر منه في الوقت نفسه اعتقد بخلود الروح، فروح الميت خالدة في الجنة مستوحيا هذه الأفكار من الدين الإسلامي الحنيف والمذهب الشيعي حيث طغى

الموت على شعره في الديوان، إذ نادى الأمة العربية بالضرورة التوحد تحت راية الإسلام كما دعاها لمقاومة وجهاد العدو الصهيوني الذي احتل بلاد المقدس.

الهوامش

- 1- ينظر حياة هروال: دلائلية الموت في الخطاب الشعري الجزائري المعاصر، رسالة ماجستير في الأدب الجزائري قسنطينة، الجزائر، 2008-2009، ص 35. (مخطوط)
- 2- ينظر عبد الرحمان بدوي: الموت والعبقرية، مكتبة النهضة المصرية، مصر، ط3، 1996م، ص06.
- 3- ينظر أحمد عبد الخالق: قلق الموت، عالم المعرفة للطباعة والنشر، الكويت، ط1، 1987، ص18.
- 4- ابن منظور: لسان العرب، المجلد السادس، تح: عامر أحمد حيدر، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط1، 2005 ص 817-821.
- 5- الفيروزبادي: القاموس المحيط، مادة موت، تحقيق: محمد نعيم العرسوقي، مؤسسة الرسالة للطباعة النشر، بيروت، لبنان، ط8، 2005 ص 161.
- 6- ابن منظور: لسان العرب، المجلد السادس، ص824.
- 7- ينظر وليد مشوح: الموت في الشعر العربي السوري المعاصر، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، سوريا، ط1، 1999، ص72.
- 8- أحمد بوساحة: حقيقة الموت في الديانات: المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، مصر، ط1، 1998، ص 25.
- 9- جاك شرون: الموت في الفكر الغربي، تر: كامل يوسف، عالم المعرفة لنشر والطباعة، الكويت، 1998 ص 94
- 10- جاك شرون: المرجع السابق ص 96.
- 11- أحمد قيطون: تيمة الموت في الشعر الجزائري المعاصر، مجلة الأثر، ع10، مارس 2010م، كلية الآداب واللغات جامعة قاصدي مرياح، ورقلة الجزائر، ص198.
- 12- الجمعة 08.
- 13- محمد بن أحمد الحنبلي: البحور الزاخرة في علوم الآخرة، تح: محمد إبراهيم شلبي، ج1، غراس للطباعة والنشر الكويت، (دط)، 2008م، ص40.

- 14- أبي عبد الله القرطبي: التذكرة بأحوال الموتى والأخرة، تح: الصادق بن محمد بن إبراهيم، مكتبة دار المنهاج الرياض السعودية، ط1، 1425هـ، ص110.
- 15- محمد ابن أحمد الحنبلي: البحور الزاخرة في علوم الآخرة، ص 45.
- 16- ينظر محمد بنيس: الشعر العربي المعاصر بنياته وإبدالاته، ج3، دار توبقال للنشر، الجزائر ط8 ص 245.
- 17- رشيد بن مالك: السيميائية بين النظرية والتطبيق، رسالة دكتورا، كلية الآداب واللغات، جامعة تلمسان 1994/1995، ص 164. (مخطوط)
- 18- شهاب الدين أبي عبد الله: معجم البلدان، مجلد الرابع، دار صادر، بيروت، لبنان، ط1، 1988، ص 311.
- 19- ينظر أحمد مختار عمر: اللغة واللون، عالم الكتب، القاهرة، مصر، ط2، 1997، ص 184.
- 20- تميم البرغوثي: في القدس، دار الشروق للطباعة النشر، القاهرة، مصر، ط1، 2009، ص69.
- 21- تميم البرغوثي: في القدس، ص71.
- 22- تميم البرغوثي: في القدس، ص84.
- 23- تميم البرغوثي: في القدس، ص85.
- 24- تميم البرغوثي: في القدس، ص91.
- 25- تميم البرغوثي: في القدس، ص95.
- 26- تميم البرغوثي: في القدس، ص96.
- 27- تميم البرغوثي: في القدس، ص97-99.
- 28- تميم البرغوثي: في القدس، ص132.